مادة الفكر الجغرافي \_ أ.م.د. نجلة عجيل محمد

الفكر الجغرافي في الحضارة الرومانية
على ضوء دراسة التيارات السياسية القديمة في البحر المتوسط يمكن تقسيم حوض البحر المتوسط إلى حوضين احدهما في الشرق والثاني في المغرب . إذ إن امتداد شبه جزيرة ايطاليا واقترابها من جزيرة صقلية يكون حاجزا" يفصل بين جزئي البحر المتوسط . .
ونظرا" لاقتراب الجزء الشرقي من مراكز الحضارة القديمة العراقية والمصرية فقد كان نصيبه من الإحداث التاريخية أكثر وأقدم من الجزء الغربي. وكان من نصيب الحوض الشرقي مجيء الأقوام اليونانية واستقرارها في شبة الجزيرة اليونان وأجزاءها الشرقية، الأمر الذي هيأ له فرصة الاحتكاك بمراكز الحضارة القديمة قبل جزء الغربي الذي كان بعيدا" عن مراكز الحضارة , إلا انه من حسن الحظ إن يكون الفينيقيون همزة الوصل بين الحوضين منذ تاريخ قديم..

والذي يقارن بين جزئي حوض البحر المتوسط يجد المقومات الطبيعية التي توفرت للحوض الشرقي تميزه عن الحوض الغربي . فكثرة الأرخبيلات والجزر التي يمتلكها الحوض الشرقي تفوق ما يمتلكه الحوض الغربي، الأمر الذي انعكست أثاره على طبيعة الحياة السياسية التي تطورت في كل حوضين . فقد امتازت الوحدات السياسية التي برزت في الحوض الغربي بخاصية الوحدة السياسية في الوقت الذي زاد فيه عدد الوحدات السياسية التي قامت في الحوض الشرقي عن الحوض الغربي.
وقد تناولت دراستنا السابقة للحضارة اليونانية ( الإغريقية ) النشاط الفكري في الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط وعليه فلا بد من معرفة ما قدمه الجزء الغربي من المعطيات الفكرية وخاصة في مجال الفكر الجغرافي.
ولا بد من الإشارة إلى أن أكثر الباحثين الذين يتناولون الفكر الجغرافي في حوض البحر المتوسط أشاروا إلى وحدة فكرية جمعت بين حوضين . معتبرين الحضارة الرومانية امتدادا" فكريا" للحضارة اليونانية ( الهيلينية ) متناسين الفواصل التاريخية بين الحضارتين سواء كانت سياسية أم فكرية، و ان المقومات الفكرية والاتجاهات العامة للفكر الجغرافي تتميز في كل من المرحلتين بميزات خاصة وقد يكون وراء ذلك العامل الزمن ، فقد تلت الحضارة الرومانية الحضارة اليونانية بفاصل زمني قد يصل الى حوالي خمسة قرون. .
للفائدة : (((الحضارة الهيلينية : مستمدة من كلمة هـِلين، وهي الاسم العرقي الذي يطلقه اليونانيون على أنفسهم بجدهم الأسطوري هيلين Hellen وببلادهم التي عرفت باسم بلاد هيلاس Hellas أو الهيلاد Hellad، إضافة إلى تسمية حضارة دولة المدينة( City-State (Polis لارتباط هذه الحضارة سياسياً وحضارياً بعدد من المدن التي كانت كل واحدة منها مع ريفها تعدّ دولة بكل معاني الكلمة))).

ومن الامور التي ترتبط بين الحضارتين اليونانية والرومانية . ان جزءا" كبيرا" من نشاطها الفكري حدث بعيدا" عن مراكزها الجغرافية في كل من شبه جزيرة اليونان التي تمثل النشاط الفكري لليونان وشبه جزيرة ايطاليا التي تمثل الموطن الجغرافي النشاط الفكري الروماني . فكلا الحضارتين اتخذتا من مهد الحضارتين العراقية والمصرية مركزا" مهما" لنشاطهما الفكري . فجاءت افكارهما متقاربة بسبب وحدة البودقة التي انصهرت فيها الحضارتين العراقية والمصرية والتي نشأ عنها ما يعرف بالحضارة الهلنستية .

للفائدة: (((إن الكلمة هلنستية هي فكرة حديثة استحدثت في القرن التاسع عشر، وهي لم تكن فكرة متداولة في اليونان القديمة. في منتصف القرن التاسع عشر حيث اطلق درويسينيوهان جوستاف دريزن مصطلح هلنستية للدلالة على الفترة التي انتشرت فيها الحضارة الإغريقية في العالم غير الإغريقي بعد فتوحات الإسكندر. وكانت أهم العقبات في انتشار المصطلح هذا هو صعوبته، إذ لم يكن انتشار الحضارة الإغريقية ظاهرة عامة كما أوحى له المصطلح. وفي بعض مناطق العالم كان تأثرها بالحضارة الإغريقية أكثر وخصوصاً على المقدونيين، أكثر من غيرهم. كما يوحي المصطلح أن السكان الإغريقيين كانوا هم الأكثرية في الأماكن التي استوطنوها، وفي حالات كثيرة، كانوا هم الأقليات بين السكان المحليين. ولم يختلط الإغريقيون بالسكان المحليين، فمع انتقال السكان الإغريق فقد ارتحلوا بثقافتهم إلا أن ذلك لا يعني دائماً أنها تفاعلت من البلاد المهاجر إليها))).

**اصل الرومان**
هنالك علاقة بين النشاط الحضاري واصل المجموعات البشرية التي تمارس ذلك النشاط، وهم مجموعة من القبائل (الهندية الاوربية ) التي كانت في اول امرها تعيش عيشة همجية . كما كان الحال بالنسبة للقبائل اليونانية والفارسية. وجاءت هذه القبائل الى شبه جزيرة ايطاليا وسكنت بجانب الاتروسكيين الذين يحتمل انهم جاؤء من اسيا الصغرى .
و تعلمت هذه القبائل المبادئ الحضارية عن الاتروسكيين حتى ان حياتهم السياسية الاولى تمثلت في خضوعهم لملوك تلك المجموعة فترة من الزمن انتهت في منتصف الالف الاولى قبل الميلاد حوالي سنة 508 ق . م . حيث انتقلوا الى دويلات المدن واسسوا دولة في مدينة روما اضافة الى بقية دويلات المدن في ايطاليا وهي بذلك تشبه دويلات المدن اليونانية .

**مقومات الفكر الجغرافي الروماني**
ان الفكر الروماني ما هو الا امتداد للفكر الجغرافي اليوناني ولكنه تطور واخذ طابعا" متميزا" نتيجة لطبيعة المرحلة الزمنية وبرزت هذه الخصائص بشكل بارز وواضح من خلال تتبع افكار العلماء الجغرافيين الذين برزوا في العصر الروماني . ومن الخصائص التي برزت في افكار الروماني لتميز عن الفكر اليوناني جوانب متعددة منها

1. **نظام الكون** :

أهتمت الدراسات الفلكية في مرحلة الحضارة الرومانية بالدراسات الكونية وقد اعتقد بعض المفكرين الرومان بأن الكون سر مدى خالد، ومن ابرز تلك الافكار هي:

1. ان النجوم مقدسة ولها تأثير على حياة الإنسان وان الشهب والنيازك توضح مستقبل الشعوب على سطح الأرض .
2. لقد اهتم الرومان بموضوع الشمس باعتبارها المؤثر الرئيسي على الكثير من المظاهر الارضية.
3. اهتموا بدراسة القمر وعدوه أرضا" لأن الشمس تترك نصف في الظل، وقالوا بأن القمر قريب جدا" من الارض وانه اصغر منها
4. لقد اجمع كافة الباحثين الرومان على كروية الارض واستقرارها في مركز الكون ومنهم بليني في القرن الأول الميلادي وبطليموس في القرن الثاني الميلادي .

وحتى بطليموس الذي اشتهر كعالم جغرافي فقد اكد على تأثير النجوم والكواكب على الأشخاص والبلاد . وبعضهم إشارة الى حركتها حول نفسها ومنهم شيشرون وسنيكا .

(2) حجم الأرض وخصائص العالم المعروف
من الامور التي امتاز بها الفكر الروماني تركيزه على حجم الارض , فقد اعتمد الرومان بصغر حجم الكرة الأرضية بالنسبة للكون الفسيح، وبالتالي اتضح مدى صغر مساحة العالم المعروف والمعمور على سطح الارض بالنسبة للكرة الارضية . .
وبذلك بدأ التفكير في امكانية وجود اجزاء من الكرة الارضية مازالت غير معلومة ومن المحتمل ان تكون آهلة بالسكان وكان من الصعب الوصول اليها لتعذر الملاحة في المحيطات التي تفصل بين الكتل السياسية .
وقد تم التركيز على القارة الجنوبية التي تمتد الى القطب الجنوبي، ومن الجدير بالذكر ان هيرودوت أشار إليها . وفي العصر الروماني اكد عليها بطليموس الذي تصور انها كبيرة بدرجة تقلق المحيط الهندي من الجنوب ليصبح بحرا" داخليا" كما انهم زعموا وجودة قارة في المحيط الغربي ( الأطلسي ) حيث يوجد متسع على سطح الكرة الارضية، يتسع لوجود كتلة يابسة كبيرة الحجم . .
وقد وصف بطليموس تلك القارة المجهولة بقوله ان الجزء غير الاهل بالسكان من الارض تحده من الشرق بلاد مجهولة تقع على طول المنطقة التي تشغلها الامم الشرقية من اسيا الكبرى وأمم الصين والأمم المنتجة للحرير . من الجنوب البلاد المجهولة التي تمتد حول البحر الهندي لتغلقه وكذلك إثيوبيا ممتدة جنوبي ليبيا حتى اوربا ومن الشمال امتداد نفس المحيط الذي يطوق الجزر البريطانية.

(3) المجموعات البشرية المجهولة
كان الافق الجغرافي اليوناني قد اتسع اتساعا" كبيرا" فشمل معظم مناطق العالم القديم باستثناء الاطراف الشمالية للقارة الاوربية وافريقية جنوب الصحراء، وقد انعكس ذلك على الفكر الروماني الذي ركز على البحث عن المجهول ، فقد تصور ( قراطيس ) محيطين متقاطعين احدهما مستعرض ( استوائي ) والاخر طولي ( قطبي ) يقسمان الارض الى اربع اجزاء عامرة وآهلة بالسكان تتمثل في ارض البشر الذين يسيرون معتدلين , وهم كما في الاقسام التالية:

1. القسم الاول : وهم عبارة عن كائنات بشرية لهم بشرة شقراء ولهم صور خيالية ولكنهم من نسل الملائكة وهذا القسم تمثله قارة امريكا الشمالية حاليا" .
2. القسم الثاني: يشمل ارض البشر الذين يسرون مقلوبين ( على الوجه المقابل لنا من الارض ) وهذا القسم تمثله قارة امريكا الجنوبية.
3. القسم الثالث: ارض البشر ذوي البشرة السوداء وهذا القسم تمثله قارة تمتد وراء المحيط الاستوائي الواقع جنوب افريقيا .
4. اما الجزء أو القسم الرابع فيمثله العالم المعمور المعروف في ذلك العصر .

ولابد من الاشارة الى ان الرومان اهتموا بدراسة السكان بالنسبة لدولتهم وجاءت آراؤهم مؤيدة للتنمية السكانية . ومن آراؤهم في السكان :-

1- عد الرومان كثيرة النسل امرا" محمودا" وذلك لسيادة الروح العسكرية .
2- تبنوا سياسة تشجيع الزواج وعدم موافقتهم على العزوبية
3- زاد اهتمامهم بالإكثار من النسل عندما وجدوا قلة النسل بدأت بالظهور عقب الحروب البونية. ..
4- حددوا معوقات النمو السكاني بالفيضانات والأوبئة والمجاعات والحيوانات المتوحشة والحروب والثورات .

للفائدة )))) كان السبب الرئيسي للحروب البونية هو تصادم المصالح بين الإمبراطوريتين القرطاجية والرومانية الآخذتان في التوسع. اهتم الرومان في البداية بالتوسع في صقلية، والتي كانت تقع تحت سيطرة القرطاجيين. في بداية الحرب البونية الأولى كانت قرطاج هي القوة المهيمنة على البحر المتوسط بإمبراطورية بحرية متوسعة، في حين كانت قوة روما آخذة في الاستيلاء السريع على السلطة في إيطاليا. بحلول نهاية الحرب البونية الثالثة، وبعد مقتل مئات الآلاف من جنود الجانبين استولى الرومان على إمبراطورية قرطاج وهدموا المدينة، لتصبح الإمبراطورية الرومانية أقوى دولة في غرب البحر الأبيض المتوسط. تزامن ذلك مع نهاية الحروب المقدونية وهزيمة الإمبراطور السلوقي أنتيوكوس الثالث العظيم في الحرب الرومانية السورية وإبرام (معاهدة أباميا، 188 قبل الميلاد) في شرقي البحر المتوسط، مما أدى إلى بروز روما بوصفها القوة المهيمنة في البحر المتوسط وأقوى مدينة في العالم القديم. كانت تلك نقطة التحول التي أدت إلى مرور الحضارة المتوسطية القديمة من أفريقيا إلى أوروبا عبر روما)))).

التوجه نحو الدراسات الطبيعية
استمر الاهتمام بالدراسات الطبيعية والذي أكدت عليه الدراسات اليونانية القاعدة القديمة للفكر الروماني . ومن الظواهر الطبيعية التي نالت اهتمامهم:
5. ظاهرة المد والجزر لكونهم امة بحرية وفسروها بتفسيرات عديدة وجاء من بين تلك التفسيرات ربطها بأوجه القمر .
6. من الظواهر الطبيعية التي ركز عليها الفكر الروماني ظاهرة الزلازل والبراكين . وقد فسرها بعض علمائهم بأنها تحدث نتيجة للهواء المضغوط الذي يزداد ضغطه فيهز الأرض ويحث فيها عيوبا.
7. في مجال دراسة التضاريس فقد أشاروا إلى حدوث تغيرات في سطح الارض ادت الى ظهور بعض الأجزاء واختفاء أجزاء أخرى .

وقبل الانتهاء من دراسة الفكر الجغرافي الروماني لابد من الاشارة الى بعض العلماء. .
 (1) استرابون Strabo: :
ولد عام 63 ق . م وتلقى علومه في مدينتي روما والإسكندرية . كما زار ايطاليا واليونان واسيا الصغرى، واشتهر بمؤلفاته الخاصة بالعلوم الجغرافية والكشوف التي قام بها غير من العلماء
وقد آلف 17 مؤلفا" تناولت إضافة إلى الجغرافية علوما" اخرى شملت الرياضيات والطبيعة والتاريخ والسياسة . وقد استعان بآراء العلماء الذين سبقوه وآخذ عنهم الكثير من طرق بحثهم , واعتقد سترابون بأن المعرفة الجغرافية كبيرة وأن قارات من الأرض لم تعرف بعد , وقد تناول في مؤلفاته معظم القارات وقدم دراسة مفصلة عن مصر ضمن إطار دراسته لقارة افريقيا في كتابه السابع عشر .

(2) بليني Pliny:
تميز بليني بجمعه لخصائص متعددة . لذلك جاءت كتاباته متنوعة في مختلف الموضوعات , فكتب في تاريخ الحروب والعلوم الاخرى , وتنسب اليه اول محاوله لوضع دائرة معارف عن الطبيعة تتكون من سبعة وثلاثين كتابا" . خصص اربع كتبا" منها للجغرافية .
وقد اكد في دراسته على طبيعة السواحل وخاصة تلك السواحل التي شاهدها وبذلك فقد استخدم الاسلوب التطبيقي للجغرافية الطبيعية والذي يقوم على اساس مشاهدة الظاهرة الطبيعية ثم القيام بتسجيلها .

(3) بطليموس:

يُعد من أعظم الجغرافيين في عهد الإمبراطورية الرومانية , وهو من اصل إغريقي عاش في الإسكندرية وعمل فيها , ويعتبر الجسر الذي يربط بين الفكر الجغرافي القديم وما تلاه من أفكار حديثة حاول ان يضع للعلوم الجغرافية أساسا" علميا" ونظريا" لتقوم عليه .
ففي مجال تأليف الكتب الجغرافية , قام بوضع مصنفين كبيرين احدهما في الفلك وهو عبارة عن ثلاثة عشر مقالا" ويعرف باسم المجسطي والكتاب الثاني المرشد إلى الجغرافية والذي اشتهر فيما بعد بـ ( الجغرافيا ) وتناول فيه دراسة العالم المعروف وتقسيمه الى قارات وتقسيم القارات الى اقاليم.
وفي كتابه الأول المجسطي تناول:

1. المقدمات العامة التي تشير إليها بعض الكتب الحديثة ومنها البرهان على كروية الأرض وثبات الأرض.
2. تباين طول الليل والنهار تبعا" لدرجات العرض.
3. تناول نزول الشمس في نقطتي الاعتدال ( المدارين ).
4. حركة القمر وبيان اختلافها وجوانب فلكية متعددة ومتعلقة بالنجوم. اذ ان بطليموس كان متأثرا" بحركة النجوم، وقد أضاف الى عدد النجوم التي كانت معروفة في زمانه والتي حددها هيبارخوس بـ 850 نجما" ثابتا" , عددا" آخر فأصبحت حسب رأي بطليموس 1022 نجما" .

أما الكتاب الثاني فيعتبر أطلسا لأجزاء العالم المعروف حينذاك ويعرف باسم الجغرافية , وقد ناقش في هذا الكتاب الأسس النظرية لشكل الأرض وإبعادها كما أشتمل على دراسة الجغرافية الرياضية . وقبل الانتهاء من بحث الفكر الجغرافي الروماني , لابد من الإشارة إلى بعض الجوانب التي اثر فيها هذا الفكر .
فبالنسبة إلى القارة الأوربية وفكرها الجغرافي في القرون الوسطى , كان الأثر سيئا" ، إذا استمرت أوربا في رسم خرائطها مستمدة ذلك من الفكرة الرومانية التي تقوم على أساس القرص المستدير للعالم والذي يحيط به البحر من جميع الجهات ولكن يجب إن لا ننكر عليهم ما قاموا به من توسيع للأفق الجغرافي اذ بفضل الطرق التجارية والحربية التي أقيمت في العصر الروماني , تم الوصول الى اجزاء لم تكن معروفة لليونانيين من قبل كما ظهرت في عهدهم بعض الآراء الفلسفية التي تركت بصمات واضحة على الفكر الجغرافي .